اليسوعيّون وحقوق الإنسان في السلفادور

صلاح أبو جوده*

في ١٦ نوفمبر ١٩٨٩، قامت جماعةٌ عسكريّة، تابعة لحكومة السلفادور، بدخول حرم «جامعة أمريكا الوسطى» في العاصمة واقتحمت مسكن الآباء اليسوعيّين حيث يُقيم ستّة منهم ومعهم طبّاخة وابنتها ولها من العمر خمسة عشر عامًا. فنكّلوا بهم جميعًا قبل أن يُردوهم قتلى. أسبابُ هذه الجريمة تعود إلى أنّ الآباء شجّعوا الحوار الوطنيّ بين الحكومة والثوّار. وفي الوقت ذاته، ندّدوا بالظلم اللاحق بالفقراء وانتهاكات حقوق الإنسان وانعدام العدالة الاجتماعيّة، تحدوهم روح إنجيليّة عالية، مُتحدّين بذلك نظامًا دمويًّا فاسدًا وصل عدد ضحاياه في العشر السنوات الأخيرة إلى ٧٠،٠٠٠ ضحيّة، بينهم رئيس أساقفة السان سلفادور، المونسنيور أوسكار روميرو Oscar Romero الذي قُتل سنة ١٩٨٠، والأب روتيليو غرانده اليسوعيّ Rutilio Grande الذي قُتل سنة ١٩٧٧، وأربعة راهبات من جمعيّة مارينول Maryknoll.

لا بدّ الآن من إلقاء نظرة، ولو سريعة، على السلفادور وعلى ظروفها الاجتماعيّة والسياسيّة التي عاش واستُشهد فيها اليسوعيّون الستّة.

جغرافيًا، سكّانيًّا، اقتصاديًّا

تحتلُّ السلفادور مساحة قدرها ٢١،٤٠٠ كلم² وهي تُعدّ من أصغر

(*) مجاز في إدارة الأعمال. دارس في الرهبانيّة اليسوعيّة.

بلدان أمريكا الوسطى ومن أكثرها كثافةً سكّانيّة، إذ يبلغ عدد قاطنيها الحالي ٥،١ مليون نسمة بمعدّل ٢٤٠ شخصًا في الكلم² الواحد. وتعدادها السكّانيّ ينمو بمعدّل ٣٪ سنويًّا، الأمر الذي ينعكس سلبًا على الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فتقلّ فرص العمل، وينحدر الإنتاج الخاصّ والعامّ، ويزداد الفقر في الأوساط الشعبيّة. وعلى الرغم من أنّ الصناعة في السلفادور تحتلّ مركزًا مرموقًا بالمقارنة مع غيرها من بلدان أمريكا الوسطى، تبقى الزراعة عماد اقتصادها، وهي تقوم بالأكثر على إنتاج البُنّ وقصب السكّر بأساليب بدائيّة لا تُساعد على تحسين الإنتاج كمًّا ونوعًا.

وممّا يزيد من فقر المزارعين أنّ بضعة آلاف من المواطنين يديرون أكثر من ثلثَيْ الأرض الزراعيّة، و١٤٥٠ مالكًا كبيرًا يحتفظون لأنفسهم بخمس الأرض الصالحة. وهم يكوِّنون في ما بينهم قوّة سياسيّة لها وزنها. فقد عارضوا سنة ١٩٧٦ مشروعًا للإصلاح الزراعيّ تقدّم به الرئيس مُولينا Molina واضطرّوه إلى التخلّي عنه.

بداية الحرب الأهليّة

قادت الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة المزرية إلى تفجُّر حرب أهليّة سنة ١٩٧٢ بعد أن رفضت المعارضة انتخاب الرئيس مولينا، مُتَّهِمةً الحكومة بتزوير الانتخابات، فكانَ أن تخلّى عددٌ من القادة عن النضال السياسيّ والقانونيّ وتحوّلوا إلى حرب العصابات. واشتدّت الحربُ الأهليّة ابتداءً من ١٩٨٠، ولم تتوقّف بالرغم من المفاوضات التي أجراها الرئيس خُوسي نابوليون دُوارتِه Duarte، الذي خلفَ مولينا، مع الثوّار. وفي ١٦ مارس ١٩٨٩ انتُخِبَ رئيس جديد هو ألبيرتُو كريستياني Cristiani وهو عضو حزب «التحالف الثوريّ الوطنيّ» الذي يضمّ في صفوفه متطرّفين، منهم الرائد دُوبُويسُّون d'Aubuisson الذي ارتبط اسمه «بسرايا الموت»، المشبوهة الرئيسيّة باغتيال المونسنيور رُوميرو، ذلك الاغتيال الذي لم يُحَلْ يومًا إلى القضاء.

ننتقل الآن إلى عرض وجيز لعمل اليسوعيّين في تلك البلاد المنكوبة.

تدفّق المرسَلين بعد الحرب العالمية الثانية

منذ انفصال بلدان أمريكا الوسطى عن إسبانيا وحتّى أواسط الأربعينات، قلّ قدوم المرسَلين الأوروبيّين إلى تلك البلاد. لكن ما إن وضعت الحرب العالميّة الثانية أوزارها، حتى تدفّق المرسلون من سائر الرهبانيّات إلى دول أمريكا اللاتينيّة والوسطى. ومن بينهم يسوعيّون إسبان وصلوا إلى فنزويلا، البيرو، البرازيل، السلفادور، غواتيمالا وغيرها. وكان لهم دور أساسيّ في إعادة بعث الكنيسة اللاتينيّة ـ الأمريكيّة ونشر تعاليم المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وقد بذل المرسلون جهودًا جبّارًا للتأقلم في بيئاتهم الجديدة، فاعتمد الكثير منهم الهويّة المحلّيّة، ورفض الكثيرون مغادرة بلادهم الجديدة بالرغم من المخاطر والتهديد.

وقد انصرف اليسوعيّون الواصلون في سنوات ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ إلى تأسيس مدارس عديدة وثلاث جامعات: واحدة في غواتيمالا (جامعة لانديڤار Landivar)، وأخرى في مَناغوا، وثالثة في سان سلڤادور (جامعة أمريكا الوسطى).

إنّ هذا الاهتمام في إنشاء المعاهد العالية لم يمنع اليسوعيّين من اكتشاف البؤس والظلم اللاحقَيْن بالسكّان القرويّين والقاطنين في الأكواخ بالمدن. فشرعوا في تأسيس سلسلة من المدارس أطلقوا عليها اسم «إيمان وفرح» Fe y Alegria. وُلدت هذه السلسلة في فنزويلا وما لبثت أن امتدّت لتشمل عددًا كبيرًا من دول أمريكا اللاتينيّة. والهدف من هذه الحركة هو تأمين مدارس كاثوليكيّة للفقراء الذين يُعاونُون في إنشائها. وللإبقاء على عملها يتعاون مع اليسوعيّين رهبانيّات مختلفة. ومن بين اليسوعيّين الستّة الشهداء، كان الأب جُواكِين لُوبيز مدير مدارس «إيمان وفرح» في السلڤادور.

وقبل أن نختم كلامنا الموجز في عمل اليسوعيّين، نتوقّف قليلاً عند الدور المميَّز لجامعة أمريكا الوسطى. فقد مثّلت هذه الجامعة دورًا جبّارًا في رفع المستوى التعليميّ في البلاد. وتحتفظ إلى اليوم بسمعة رفيعة لما تقدّمه من تكوين

فكريّ وأخلاقيّ وأكاديميّ إلى الطلاّب الذين وصل عددهم إلى ٦٢٠٠ والذين وجدوها بديلاً لجامعة الدولة المشبَعة بالأفكار الماركسيّة. وكان لاكتشاف البؤس وقلّة العدالة انعكاسه على أسلوب التدريس فيها، فاهتمّت بتنمية الحسّ بالمسؤوليّة الاجتماعيّة والوطنيّة والسياسيّة، وقامت بأبحاث تمسّ مباشرةً أهمّ مشاكل البلد وأكثرها حسّاسيّة، فأصدرتّ، على سبيل المثال: دراسةً حول تزييف الانتخابات سنة ١٩٧٢، وأعلنت عن استعدادها للمساعدة في برنامج الإصلاح الزراعيّ الذي بادرت إليه الحكومة سنة ١٩٧٦ وأسقطهُ أصحاب الأملاك الخاصّة كما سَبَق أن ذكرنا.

موقف الكنيسة / موقف العالم

إنَّ هذه المأساة التي يعيشها الملايين من الناس، يزيدُها قساوةً موقف الدول وموقف البعض في الكنيسة. فمن الوهم الظنّ أنَّ كلّ كنائس أمريكا اللاتينيّة متّحدة وبحماسة في الكفاح من أجل العدالة والسلام. فالكثيرون غير مبالين لا يريدون المخاطرة، والبعض الآخر لا يُهمّه الظلم بقدر ما يُهمُّه إبعاد الخطر الشيوعيّ. وفي حين كان بعض المسيحيِّين، وعلى رأسهم رجال الدين، يتظاهرون في أوروبّا والولايات المتّحدة بعد قتل اليسوعيِّين الستّة، مطالبين العالم بمقاطعة النظام الدمويّ في السلفادور، أعلنت الولايات المتّحدة أنّها وافقت على مساعدة عسكريّة لنظام السلفادور بقيمة ٨٥ مليون دولار، مع العلم بأنَّ مساعداتها له بلغت ٣،٥ بليون دولار، معظمها للجيش الذي يدرِّبُه خبراء أمريكيّون.

أمّا اليسوعيّون في السلفادور وعددهم ٧١، فكان ردّهم على الجريمة بسيطًا وواضحًا: «إنَّ في موتِ أولئك اليسوعيِّين الستّة والمرأتَيْن اللتين كانتا معهم، انضمام إلى أكثر من ٧٠،٠٠٠ إنسان قُضي عليهم في حرب أساسها وسببها انعدام العدالة الاجتماعيّة. لقد عمِلَ رفقاؤنا من أجل سلام مبنيّ على حقوق الفقراء، وفي موتهم شاركوا قدر الكثيرين من فقراء السلفادور الذين اغتيلوا لأنّهم نَشَدوا الحرّيّة عن طريق أساليب سليمة. ونحن واثقون بأنَّ سبب اغتيال رفقائنا هو ارتباطهم بالعمل من أجل السلام والعدالة. نحن نرفض أن

تذهب تضحية يسوعيّين عبثًا. بل من شأنها أن توقف الحرب وتشجّع العمل من أجل حلّ سياسيّ للصراع عن طريق الحوار، يؤمّنان طريقًا أفضل لوطننا المبتلى.

إنّ رفقاءنا الستّة قد بذلوا قُصارى جهدهم في عمل فعّال من أجل سلام عادل قائم على الحوار ومبنيّ على احترام حقوق الفقراء وكرامتهم. وإنّنا على ثقة بأنّ موتهم سيكون البذار لعمل جديد من أجل السلام في هذه البلاد.

إنّ رفقاءنا الثمانية «اغتسلوا وبيّضوا ثيابهم في دم الحمل» كما فعل من قبلهم أوسكار روميرو ورُوتيليو غرانده، وأوكْتافيو أورتيز وكهنة آخرون كثيرون وقبلَ كلّ ذلك، الكثير الكثير من المسيحيّين المجهولين الذين بذلوا حياتهم بتواضع وفقر تضامُنًا مع الذي يتألّمون أكثر من سواهم في هذه البلاد. عسى أن تكون هذه الجماعة من شهداء السلفادور وقدّيسيه الحافز لنا لنبقى على التزامنا في سبيل السلفادور «لتكون له الحياة وتكونَ له أوفر».[1]

إنّ التضامُن والدعم، خصوصًا في أدقّ الظروف وأحرجها، مع كلّ مسعى يهدف إلى حرّيّة الفقراء التامّة بكلّ ما تحمله من أبعاد اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة، هي الخطوة الأولى الواجب علينا جميعًا اتّخاذُها:

«إذا سرنا بصبر واتّضاع مع الفقراء، تعلّمْنا السبيل إلى مساعدتهم بعد أن نكون رضينا بقبول المساعدة منهم أوّلاً. فبدون هذه المسيرة الصابرة معهم، يكون العمل من أجل الفقراء والمحرومين على تناقض مع نوايانا ويمنعنا من الإصغاء إلى طموحاتهم، ومن توفير الوسائل التي تسمح لهم أن يحدّدوا مصيرهم الشخصيّ والجماعيّ. بالخدمة الوضيعة تُتاح لنا الفرصة لنقودهم إلى أن يكتشفوا، في وسط مصاعبهم وصراعهم، يسوعَ المسيح الحيّ والفعّال بقوّة روحه. بذلك يمكننا أن نكلّمهم عن الله أبينا، الذي يصالح الإنسانيّة بإقامتها في مشاركة أخويّة صادقة».

(المجمع العامّ الثاني والثلاثون للرهبانيّة اليسوعيّة، قرار ٤، رقم ٥٠)

---

(١) بعد الاغتيال، تطوّع أكثر من ٣٠ يسوعيًّا من سائر البلدان للعمل في السلفادور، وبالفعل تمّ قبول ستّة منهم ليحلّوا محلّ الذين قُتِلوا.

صدر حديثًا عن «دار المشرق»